فولتير.. وعصر التنوير الفرنسي (١٦٩٤-١٧٧٨م)

فولتير

• ١- باريس:

في عام ١٧٤٢م كان فولتير يدرب الممثلة "دو ميشل" على كيفية بلوغ قمة الحزن في التمثيل في مسرحية كتبها هو بعنوان "ميروب". قالت له الممثلة إنه يجب أن يكون هناك شيطان بداخلها حتى تبلغ من التقمص ما تريد وتظهر العاطفة التي تريد إظهارها. فقال فولتير إن ذلك صحيح، ويجب أن يكون في نفسك شيطان حتى تنجحي في أي فن من الفنون. وكان بعضهم يسمون فولتير باسم "الرجل الذي وضعت جهنم في يديه نارها[١]".

كان فولتير قبيح المنظر إلى حد البشاعة، وكان مختالاً ومعجبًا بنفسه بشدة. كما كان بذيئًا ومستهترًا وخائنًا وفاسقًا. فقد حمل كل جرائم عصره ومكانه الذي عاش فيه. وكان يصبح لطيفًا وسخيًا في بعض الأوقات، كما كان مسرفًا في مساعدة أصدقائه ومحاربة أعدائه. هذا هو فولتير الرجل شديد التناقض[٢].

وعلى الرغم من ذلك التناقض الواضح، إلا أن عقله لا يكل وأفكاره لا تنضب. فقد ألف ٩٩ كتابًا تشع منها الحكمة والفائدة. ولا شك أن إنتاجه هذا أعظم إنتاج في عصره حيث لا يضاهيه فيه أي مفكر آخر. وعلى الرغم من انتقاله من موضوع إلى آخر بسرعة إلا أنه كان شجاعًا وصريحًا وواسع الاطلاع. وكان يقول: "تجارتي أن أقول ما أؤمن به." وإن كنا لا نقرأ له الآن، فذلك لأن قضايا اللاهوت التي تناولها لم تعد

(١) - بئس التسمية. كما أنه تجرأ على الغيبيات التي لا يعلمها إلا الله. وفي عصرنا الحالي تجرأ عامة الناس أكثر وأكثر .. فهذا يعاني من مشقة السفر لفترة طويلة فيقول: «لو أني ذاهب إلى جهنم لكان السفر أسرع» وآخر يصف الشيء القديم بقوله: «طلع دينه.» ... ولا حول ولا قوة إلا بالله. (المترجم)

(٢) - التناقض واضح في كثير من فلاسفة هذا الكتاب وليس فولتير فقط. فهذا يتحدث عن إيمانه وعقيدته، ثم يتحدث بما يؤكد أنه لا يؤمن بوجود إله في وقت آخر، وذاك يقول إني مؤمن بالله الواحد ثم يختار من العقائد ما يرضى عنه ويرفض ما لا يروق له. (المترجم)

مألوفة ولا تثير الاهتمام. وقد يكون اهتمامنا قد انتقل إلى موضوعات أخرى، وبدأنا نهتم بالحياة الدنيا وليس بالآخرة.

وكثير من شهرة فولتير يعود إلى قدراته العالية في التحدث إلى الآخرين وإلى انتصاراته الساحقة على القساوسة. لقد كان فولتير ذكيًا وصريحًا، يمكنه تحويل الغضب إلى هزل وتحويل النار إلى ضياء. وربما يكون أعظم المفكرين حيوية ونشاطًا عبر التاريخ كله. يقول: "كلما تقدم بي العمر، أحسست بضرورة العمل لفترة أطول ويصبح العمل لذتي الكبرى. فإن أردت ألا تنتحر، أوجد لنفسك عملاً تقوم به. وكانت فكرة الانتحار تطارده وتستهويه، فقد أمضى حياته كلها في العمل وكان عصره أعظم العصور الأوروبية. وقال عنه "فيكتور هوجو[1]": "كانت لإيطاليا نهضة ولألمانيا إصلاح. لكن فرنسا لها فولتير." وقد امتدحه كثيرون غيره. وقد عاش ٨٣ عامًا وتمكن من تحليل مفاسد عصره.

وكان تأثير فولتير أيضًا لا يقارن. فبالرغم من النفي والسجن ومصادرة كل الكتب تقريبًا، إلا أنه استمر في طريقه بقوة وجرأة. وقد كان له هو و"جان جاك روسو" فضل كبير في الانتقال من الحكم الأرستقراطي إلى حكم الطبقة المتوسطة. لكنهما لم يكونا سببًا للثورة الفرنسية. وربما يكونا معًا هما والثورة نتيجة للقوى العديدة التي كانت تفور تحت سطح الحياة السياسية والاجتماعية الفرنسية.

وقد قال لويس السادس عشر عن فولتير وروسو وهو في السجن "لقد دمر هذان الرجلان فرنسا." ويقصد بذلك تدميره هو والنظام الملكي معًا. وقال نابليون: "كان من الممكن للعائلة المالكة أن تستمر في الحكم لو سيطرت على الأقلام وراقبت المطبوعات. لقد قضى المدفع على الإقطاع، وسيقضي القلم على النظام الاجتماعي الحديث."

ولد فولتير في باريس عام ١٦٩٤م، وكان أبوه كاتب عدل ناجح وكانت أمه ذات ميول أرستقراطية. وكان مدينًا لوالده بالدهاء وسرعة الغضب فقد ورثهما عنه. كما كان مدينًا لأمه بالطيش والذكاء. وقد ولد بعد أن ماتت أمه وهي تلده. وكان هزيلاً ومريضًا

(١) - فيكتور هوجو (١٨٠٢-١٨٨٥م) : فيكتور ماري هوغو هو أديب وشاعر وروائي فرنسي، يعتبر من أبرز أدباء فرنسا في فترة الرومانسية. وقد ترجمت أعماله إلى أغلب اللغات الحية. (المترجم)

مما دفع القابلة للقول بأنه لن يعيش أكثر من يوم واحد. لكنها أخطأت في تقدير عمره قليلاً فقد تجاوز الثمانين كما قلت من قبل. وكان أخوه "أرماند" يشرف على تعليمه وتثقيفه إلا أنه ألحد وحكم عليه بالإعدام. وقد اعتاد أبوهما على القول بأنه رزق بولدين أحدهما مجنون بالشعر والآخر مجنون بالنثر. وكان فولتير يرتجل الشعر بنفس السرعة التي ينطق بها اسمه. لذلك فقد اقتنع أبوه بأن ابنه لا يصلح لشيء، ولم يتوقع منه أي خير.

لكن إحدى سيدات المدينة التي عاش فيها فولتير وأبوه لاحظت موهبته ونبوغه وعبقريته. فتركت له مبلغ ألفي فرنك بعد موتها ليشتري بها كتبًا. وقد أرشده رئيس الدير إلى مبدأ الشك في صلاته، وأكد اليسوعيون على تعليمه الشك في كل شيء كبداية للحوار. وكان ذلك الفن الذي يسمونه فن الشك لإثبات كل شيء، إلا أنه ينتهي عادة إلى عدم الإيمان بأي شيء.

وكان فولتير بارعًا في التحاور مع الآخرين وكان يقضي وقته وهو لم يتجاوز الثانية عشرة في قراءة اللاهوت بينما يوجد أقرانه في الملاعب.

وعندما حان وقت العمل، خاب أمل والده فيه، فقد أصر على العمل بالأدب. وقد رأى والده أن الأدب مهنة ستنتهي به إلى أن يكون عالة على المجتمع وعبئًا على أسرته، وأنه سيموت جوعًا. إلا أن فولتير استمر في طريقه.

كان يعود كل يوم في المساء بعد قضاء اليوم في جميع أنحاء المدينة بما فيها من ملاه ومباهج، فأرسله والده الساخط عليه ليعيش مع أحد أقربائه في مدينة أخرى عله ينصلح، إلا أن ذلك القريب كان مفتونًا بذكاء فولتير فأطلق له العنان في السفر. ثم أرسله والده مع سفير فرنسا في لاهاي[1] وأوصاه بمراقبته رقابة شديدة. إلا أن فولتير وقع هناك في غرام سيدة صغيرة في السن وقضى وقته في مقابلاتها أو كتابة الرسائل إليها، وهي رسائل تنتهي دائمًا بعبارة "سأحبك إلى الأبد." وسرعان ما افتضح أمره وأعيد إلى والده في فرنسا، وظل هناك عدة أسابيع لا يحتمل فراق محبوبته.

وفي عام ١٧١٥م بلغ الحادية والعشرين وكان لويس الرابع عشر قد مات، وعجز خليفته الشاب عن السيطرة على البلاد. فذهب فولتير إلى باريس واشترك في

(١) - لاهاي: عاصمة هولندا، وتقع غرب المملكة الهولندية في منطقة الجنوب. (المترجم)

المظاهرات التي وقعت هناك فذاع صيته وأصبح مشهورًا. وعندما باع الوصي على العرش نصف خيول القصر بسبب أزمة مالية، علق فولتير على ذلك بقوله: "ليته باع نصف الحمير التي تملأ البلاط الملكي." وانقلبت الدنيا فوق رأسه عندما وصلت قصيدته التي يهاجم فيها الوصي على العرش ويتهمه فيها بمحاولة الاستيلاء على السلطة إلى قصر الحكم.

ثار الوصي على العرش وقرر مقابلة فولتير. فقابله في الحديقة وقال له: "أيها السيد، سأريك شيئًا أنا أعلم أنك لم تر مثله من قبل." وكان ذلك الشيء هو سجن الباستيل، فقد دخل فولتير السجن في اليوم التالي ١٦ أبريل ١٧١٧م.

وفي الباستيل سمى نفسه فولتير لأسباب لا نعرفها واسمه الحقيقي هو "فرانسوا رايت". وفي السجن تدفقت مواهبه في الشعر وكتب هناك ملحمة شعرية طويلة خلال أحد عشر شهرًا فقط. تبين للوصي على العرش فيما بعد أن فولتير قد يكون بريئًا، فأطلق سراحه وخصص له معاشًا يعيش منه ومسكنًا. فكتب له فولتير رسالة شكره فيها على ذلك واستأذنه في الاهتمام بأمر مسكنه بنفسه.

انتقل فولتير مضطرًا من السجن إلى المسرح حيث أنتج مسرحية حزينة بعنوان "مأساة أوديب" في عام ١٧١٨م . وظل يمثلها لمدة ٤٥ ليلة متواصلة. وعندما جاء أبوه المسن لتوبيخه شاهد المسرحية أولاً وظل يردد: "آه أيها النذل اللئيم." وعندما قابله بعد العرض أثنى على أدائه.

وقد كسب من عرض تلك الرواية أربعة آلاف فرنك، فاستثمرها بحكمة غير مألوفة فيمن يعملون في الأدب. حيث شارك في مشروع حكومي سيئ التخطيط وربح مبلغًا كبيرًا جدًا. إلا أن كرمه وسخاءه زاد بعد أن أصبح شديد الغنى. وقد استفاد من براعته في الجمع بين المال والأدب. إلا أن روايته الثانية لاقت فشلاً وشعر فولتير بذلك. وزادت أحزانه عندما أصيب بالجدري. وعالج نفسه بشرب ١٢٠ كوبًا من عصير الليمون وتناول الكثير من الأدوية. تعافى فولتير بعد أن كان شبح الموت يقترب منه. وفي تلك الأثناء كانت الملحمة الشعرية التي كتبها في السجن قد لاقت نجاحًا ساحقًا، فأصبح له مكانة عند الطبقة الأرستقراطية. وأصبح فولتير أعظم مثقف في العالم.

عاش فولتير لمدة ٨ سنوات في الصالونات الأرستقراطية وهو محل تقدير واحترام.

إلا أن بعض أصحاب تلك الصالونات لم ينسوا أن عبقريته ونبوغه هما ما كناه من الجلوس بينهم. ففي يوم ذهب فولتير لتناول الغداء في أحد المطاعم الكبرى. ثم بدأ يتحدث بصوت عال ليسمعه الناس ويستمتعوا بكلامه. إلا أن أحد النبلاء علق عليه ساخرًا بقوله: "من هذا الذي يتحدث؟" رد فولتير بقوة: "من يتحدث لا يحمل اسمًا كبيرًا، إلا أنه ينال احترام الناس بفكره[1]."

كان رد فولتير على النبيل معناه إهانة كبيرة لا تغتفر. فأرسل النبيل جماعة من الأشرار إلى طريق عودة فولتير ليلاً وأوسعوه ضربًا. طلب منهم النبيل[2] أن يتجنبوا ضربه في رأسه فقد ينتج هذا الرأس ما هو مفيد فيما بعد.

في اليوم التالي، ذهب فولتير إلى المسرح فوجد النبيل (وكان اسمه "دي روهان") يجلس في إحدى شرفات المشاهدين، فلم يؤد دوره واتجه نحوه قائلاً أنه يتحداه في مبارزة وعاد إلى بيته. أمضى فولتير يومه التالي في التدرب على المبارزة بالسيف. لكن النبيل الجبان خشي أن يلقى حتفه على يد شاب متهور، فترجى عمه -وكان وزير الشرطة- أن يحميه. فتم اعتقال فولتير وأرسل إلى سجن الباستيل للمرة الثانية. إلا أنه سرعان ما أطلق سراحه من السجن بشرط النفي إلى إنجلترا. واستجاب فولتير للأمر وعبر القنال الإنجليزي إلى دوفر تحت حراسة مشددة. وما أن وصل حتى تنكر وعاد إلى بلاده مرة أخرى طلبًا للثأر. إلا أنه اكتشف أمره وأوشكوا على إيداعه في السجن للمرة الثالثة، فركب في سفينة وسافر إلى إنجلترا من جديد وظل هناك لمدة ثلاثة أعوام.

• ٢- لندن: رسائل عن الإنجليز:

درس فولتير اللغة الإنجليزية بصبر واجتهاد وسرعان ما أجادها خلال عام. وسرعان ما اندمج مع مجتمع الأدب الإنجليزي وقرأ معظم ما كُتب من شعر ونثر. وكانت له علاقات طيبة مع أدباء ومفكرين إنجليز في ذلك العصر.

---

(١) - هذا هو حال المثقفين في كل العصور وتحت كل الظروف، فما أن يشقوا طريقهم إلى صالونات الطبقة العليا في المجتمع إلا ويجدوا مكائد تدبر لهم أو يواجهون من يهزأ بهم ويسخر منهم على اعتبار أنهم من طبقة أدنى، أو لأن ما لديهم من فكر متدفق يثير حفيظة بعض الحمقى من حولهم. (المترجم)

(٢) - النبيل هنا لقب يطلق على مَن هو مِن علية القوم وليست صفة استخدمتها لوصف الرجل. فلو كان نبيلًا حقًا، ما استأجر الأشرار لضرب فولتير. (المترجم)

لاحظ فولتير الحرية التامة التي يتمتع بها الجميع فيما يكتبون. إنه يعيش مع شعب له آراء خاصة. شعب شنق ملكه وأتى بملك جديد مستورد. شعب يملك مجلسًا نيابيًا أقوى من أي حاكم أوروبي ولا يوجد عنده سجن الباستيل. شعب لديه ٣٠ مذهبًا دينيًا دون وجود قسيس واحد.

وكانت إنجلترا في ذلك الوقت لا تزال تعج بنشاط فكري قوي. وكان اسم "بيكون" لا يزال محلقًا في جنبات الفكر. وكانت طريقته الاستقرائية تستخدم في كل مكان. كما كانت هناك أفكار هوبز ولوك. وكان هناك أيضًا كولينز وتندال وكثير غيرهم ممن يؤمنون بوحدانية الله وإنكار الوحي وجميع الأديان[١]. وقد مات نيوتن في تلك الفترة وحضر فولتير جنازته. وكان يسعد بتذكر ذلك التكريم الذي أحاط بإنجليزي من الطبقة المتوسطة. وقد أصبح فولتير تلميذًا ماهرًا يدرس آراء نيوتن وكان له فضل نقلها إلى فرنسا فيما بعد.

وقد استوعب فولتير آداب إنجلترا وعلومها وفلسفتها بسرعة تثير الإعجاب. كما بث معرفته هذه في رسائل إلى أصدقائه. لكنه لم يحاول طباعة تلك الانطباعات في فرنسا لأنها كانت تقارن ما بين الدولتين، حيث قارن بين استقلال الفكر في بريطانيا والطغيان والاستعباد في فرنسا[٢]. كما هاجم الطبقة الأرستقراطية الكسولة في فرنسا، وكذلك هاجم رجال الدين الذين يبتزون الشعب بجمع التبرعات والصدقات. وأشار إلى أن سجن الباستيل هو الجواب على أي سؤال أو استجواب. وقد حثت رسائله هذه أصدقاءه من الطبقة الوسطى على النهوض والاضطلاع بدور فاعل كما هو الحال في إنجلترا. ودون أي تخطيط أصبحت هذه الرسائل أحد أسس قيام الثورة الفرنسية[٣].

---

(١) - هذا الكلام الصادر عن هؤلاء الفلاسفة الأقل شهرة يؤكد ما سبق وقلناه عن تناقض أفكارهم بصفة عامة. فهم يؤمنون بوحدانية الله عز وجل وفي نفس الوقت ينكرون الوحي والأديان كلها !! ولم يقل لنا أي منهم بأي دين يَعبد الله الواحد الأحد. (المترجم)

(٢) - لم يكن من الممكن بالطبع في تلك الفترة أن يتم نشر أي دراسة تقارن بين الدولتين، فلن يكون مصير أي كتاب يتناول ذلك الموضوع إلا المصادرة والحرق. (المترجم)

(٣) - أدت الثورة الفرنسية إلى وجود فترة مؤثرة من الاضطرابات الاجتماعية والسياسية في فرنسا .ومرت بعدة مراحل استمرت من ١٧٧٩ حتى ١٧٩٩م، وكانت لها تأثير عميق على أوربا والعالم الغربي عموما، وانتهت بسيطرة البورجوازية المتحالفة مع نابليون على الحكم وتصدير الأزمة من خلال التوسع الاستعماري للإمبراطورية الفرنسية. وقد أُسقطت الملكية وأسست الجمهورية وشهدت فرنسا فترات عنيفة من الاضطراب السياسي، وتوجت أخيرا بدكتاتورية نابليون الذي خرج سريعًا بكثير من مبادئها إلى أوروبا الغربية وخارجها. =

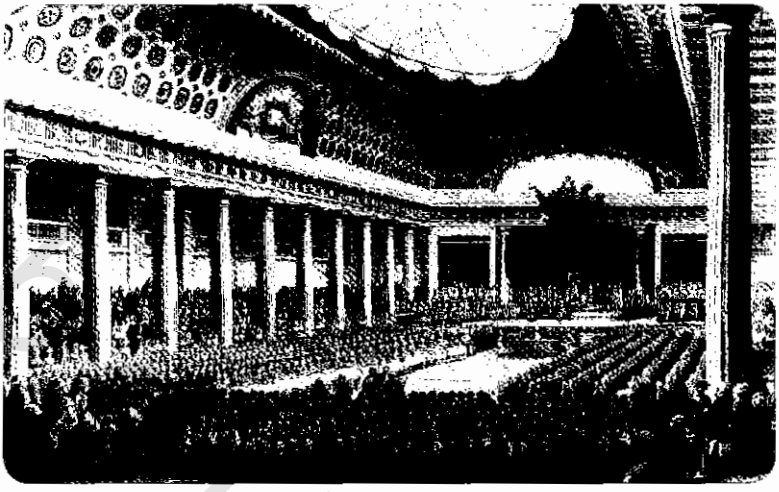

قاعة الجمعية الوطنية الفرنسية عام ١٧٨٩م والتي كانت المحرك الرئيسي للثورة

• ٣- روايات الرومانسية:

وفي عام ١٧٢٩م أرسل الوصي على العرش إذنا لفولتير بالعودة إلى فرنسا. فعاش فولتير هناك لمدة خمسة أعوام أخرى عاشها في باريس. إلا أن ناشرًا لئيمًا وقعت في يديه رسائل فولتير التي سبق أن تحدثنا عنها والتي أثارت حمية أصدقائه ونشرها دون إذن من فولتير أو علم بذلك. وباع الكتاب العديد من النسخ وراج رواجًا كبيرًا. فاجتمعت الحكومة وقررت حرق الكتاب علنًا وادعت أنه مناقض للدين والأخلاق. فأدرك فولتير أنه في طريقه إلى الباستيل مرة أخرى. فهرب، لكنه هرب هذه المرة مع سيدة متزوجة. ولم تكن أي سيدة، فلها حكاية طويلة هي أيضًا.

إنها المركيزة "دي شتايلا" وكانت في الثامنة والعشرين من عمرها وهي عالمة رياضيات ترجمت مبادئ نيوتن إلى الفرنسية وسبق لها أن نافست فولتير نفسه على الفوز بجوائز علمية. هرب الاثنان معًا وقد سقطا في إثم كبير أساء إليهما. إلا أن المركيزة وجدت أن فولتير مخلوق محبوب وممتع في صحبته لا يقارن بزوجها شديد

= وقد استوحت الثورة الفرنسية أفكارًا تحررية، غيرت بشكل عميق مسار التاريخ الحديث، وبدأ اختفاء الملكيات المطلقة واستبدالها بالجمهوريات. ويعتبر كثير من المؤرخين الثورة الفرنسية واحدة من أهم الأحداث في تاريخ البشرية. (المترجم)

الغباء. فبادلته الحب وبادلها الإعجاب. وكانت سببًا هي وأخريات في رأي فولتير حول قوله بضرورة التساوي العقلي بين المرأة والرجل في فرنسا.

لم يتأثر الماركيز كثيرًا بما حدث، وذلك لأن الأخلاق الفرنسية في ذلك الوقت كانت تسمح بعشيق للمرأة بجانب زوجها !!! شريطة ألا يكون ذلك الحب متنافيًا مع احترام الناس !!! فإن كان الحبيب عبقريًا، يسامحها العالم أجمع !!! وكان ذلك أمرًا سائدًا في ذلك العصر لإقبال الكهول على الزواج من الصغيرات اللواتي يسأمن خرف الشيخوخة ويهوين في شراك الحب[1].

أقام فولتير وعشيقته في قصر "سيري" ولم يضيعا وقتهما في العناق والقبلات بل ركزا على العمل والبحث والدراسة طوال النهار. وأقام فولتير معملاً باهظ التكاليف لإجراء التجارب العلمية. وكانا يستقبلان الكثير من الضيوف. وكان على الضيف أن يرعى شئون نفسه حتى التاسعة مساء. وفي التاسعة وبعد تناول العشاء، يبدأ الحديث عن المسرح والمسرحيات أو يقرأ فولتير إحدى رواياته. وذاع صيت ذلك اللقاء اليومي في قصر "سيري" وكان شعار فولتير أن عليه أن "يضحَك ويُضحك". لذلك أطلقت عليه إمبراطورة روسيا "إله السرور[2]". وكان فولتير يقول: "لولا اللهو والعبث لكنا أتعس المخلوقات. ولولا المرح لانتحر كثير منا شنقًا. ويل للفلاسفة الذين لا يضحكون. فمن الجميل أن نكون مجانين لبعض الوقت."

وفي تلك الفترة بدأ في كتابة روايات مبهجة مثل: كنديد - صادق - ميكروميجاس - لا نجينو - لوموند كوم ألفا ... وغيرها.

ولم يكتب فولتير كل تلك روايات بالطريقة المألوفة، بل استخدم طريقة غير معتادة. فقد كانت أبطالها الآراء، والأحداث فيها هي الأفكار، والأوغاد فيها هي الخرافات ... إلى غير ذلك.

وتعتبر قصة "صادق" من أفضل قصص فولتير. وكان صادق فيلسوفًا بابليًا. وكان

---

(١) - الكلام في هذه الفقرة لمؤلف الكتاب ول ديورانت أما علامات التعجب فقد وضعتها أنا لتنافي المعنى مع طبيعة البشر وأخلاقهم الفطرية بغض النظر عن انتمائهم لأي دين، إنها دياثة صريحة وواضحة. (المترجم)

(٢) - نوع من أنواع التهاون في استخدام الألفاظ، وهو أمر سائد في الحضارة الغربية. وقد سبق أن أشرت إليه. فاستخدام كلمة «إله» (حاشا لله) تطلق على كل من يجيد شيء ما. (المترجم)

يعرف من الميتافيزيقا ما لم يعرفه غيره من قبل. أي أن علمه غزير وقراءاته متعددة. وفي أثناء دفاعه عن سميرة التي يحبها أصيب "صادق" بجرح في عينه اليسرى.

أرسل رسولًا إلى ممفيس، وعاد ومعه الطبيب الشهير "هيرميس". وبعد الفحص أعلن الطبيب عن أسفه لأن الإصابة لابد وأن تفقد "صادق" الرؤية بعينه، وحدد اليوم والساعة التي سيحدث ذلك فيها. وقال إنها لو كانت عينه اليمنى لتمكن من إنقاذه، لكن الإصابة في العين اليسرى ولا يمكن علاجه. فبكى الجميع وتأثروا من صراحة الطبيب وبراعته. ولكن بعد يومين انفجر الخراج المجاور لعين "صادق" دون تدخل من أحد وشفيت عينه بعد ذلك. كتب الطبيب المصري كتابًا يقول إن عين "صادق" ما كان لها أن تشفى، لكن "صادق" لم يقرأ هذا الكتاب.

أسرع "صادق" يبشر "سميرة" إلا أنه وجدها قد تزوجت من شخص آخر، فلم تستطع تصور نفسها زوجة لرجل بعين واحدة مثلما أكد لهم الطبيب. وبعد ذلك تزوج "صادق" من فلاحة عله يجد فيها ما لم يجده في "سميرة" سيدة بلاط القصر.

إلا أن "صادق" أراد التأكد من وفاء زوجته، فاتفق مع صديق له أن يدعي الموت وتعلن وفاته فعلاً. ثم يأتي الصديق ويعلن حبه للزوجة بعد ساعة واحدة من موت "صادق" المزعوم. وتم التنفيذ، ولم يجد الصديق كثيرًا من الممانعة عند الزوجة. فلم يستطع صادق تحمل الأمر فهرب إلى الغابة ليعيش هناك عله يتعلم الحكمة من حياة الطبيعة.

وبعد أن بلغ من الحكمة ذروتها، سمع به الملك فعينه وزيرًا له. إلا أن الملكة وقعت في حبه، ولاحظ الملك توافق طباع الاثنين، الملكة و"صادق". فقرر أن يسمهما معًا. إلا أن الملكة اكتشفت المؤامرة وأرسلت إلى "صادق" قائلة: "أستحلفك بحبنا المتبادل أن تهرب." فهرب صادق إلى الغابات مرة أخرى.

قضى "صادق" وقتًا في الغابة يتأمل ويفكر في نظام الكون. ولما أفاق من تأملاته فكر في الملكة وخاف عليها. فقد تكون ماتت أو انتحرت من أجله. فقرر العودة إلى بابل. وفي طريق العودة وجد رجلاً يضرب امرأة بقسوة شديدة. فهب لنجدتها ولم يستطع مقاومة الرجل وهو على قيد الحياة، فلا نجاة له إلا بقتل الرجل فقتله. وإذا بالسيدة تقول له: "لقد قتلت حبيبي .. يا ليتني كنت أستطيع تمزيق قلبك."

ألقي القبض على "صادق" وحكم عليه بأن يباع عبدًا في سوق العبيد. فعلم "صادق" سيده الحكمة وأصبح مستشارًا له، وأشار عليه بإلغاء القانون الذي يقضي بدفن الأرملة حية مع زوجها. ... واستمرت أحداث القصة في التوالي على نفس النمط. وهذه القصة توضح لنا كيف كانت ليالي قصر "سيري".

• ٤- بوتسدام وفريدريك:

من لم يتمكن من رؤية فولتير أو السفر إليه لمقابلته، تواصل معه بالرسائل. ومثال ذلك المراسلات التي دارت بينه وبين الملك فردريك الثاني ملك بروسيا منذ أن كان أميرًا. وكان فردريك يكتب لفولتير كما لو كان طالبًا يتحدث إلى معلمه. وقال له إنه أعظم رجل في فرنسا وأنه شرف للغة الفرنسية، وأنه يتشرف بالوجود في عصر عاش فيه رجل مثل فولتير. وكان فولتير يعلق أملاً كبيرًا على فردريك عندما يتولى العرش.

وعندما اعترض فردريك على المديح والإطراء الذي كان يرسله فولتير إليه، قال له فولتير: "الأمير الذي لا يحب المديح والإطراء مثل البابا الذي يعترض على العصمة من الخطأ. وقد أرسل فردريك إلى فولتير كتابًا ألفه انتقد فيه مكيافيلي[1]. وقد تحدث فردريك في هذا الكتاب عن شرور الحرب وآثارها المدمرة وكذلك عن واجب الملك في الحفاظ على السلام. بكى فولتير فرحًا بتلك الروح الملكية المسالمة. إلا أنه وبعد عدة سنوات فقط تولى فردريك العرش وغزا سيليزيا وأغرق أوروبا في بحر من الدماء لفترة طويلة.

وفي عام ١٧٤٥م توجه فولتير والمركيزة صديقته إلى باريس، حيث ترشح لعضوية الأكاديمية الفرنسية. ومن أجل هذا التميز الذي لا لزوم له أطلق على نفسه اسمًا كاثوليكيًا وجامل اليسوعيين ذوي السلطة والنفوذ، وكذب كثيرًا وأجهد نفسه في التملق وفشل في تحقيق أي نتيجة في هذا المجال لمدة عام، إلا أنه نجح في ذلك في العام التالي. وعندما نجح في ذلك الأمر ألقى خطبة تعتبر أروع الخطب في التاريخ الفرنسي. واخذ فولتير في التنقل بين الصالات الأدبية في باريس وإنتاج الروايات

(١) - إنه كتاب بعنوان «ضد مكيافيلي» تناول فردريك فيه الرد على ما جاء في كتاب «الأمير» لمكيافيلي فصلًا فصلا. وقد ترجمته إلى اللغة العربية وأرفقته مع الدراسات النقدية وترجمة كتاب الأمير وصدر عن دار ابن سينا في القاهرة عام ٢٠١٥م. (المترجم)

الحزينة، ففشلت روايات قليلة منها. ومن بين الروايات التي حققت نجاحًا كبيرًا روايات: محمد ١٧٤١م[١] - ميروب ١٧٤٣م - سميراميس ١٧٤٨م وغيرها.

وبعد خمس عشرة سنة، وقعت عشيقته المركيزة في حب شاب وسيم اسمه "سانت لامبرت"، وثارت ثائرة فولتير. لكن عندما طلب "سانت لامبرت" الصفح والمغفرة من فولتير عفا عنه ومنحه بركته[٢]. ثم تحدث عن الأظافر التي تخلع بعضها في قصيدة عن ذلك العشق، فقال فيها :

سانت لامبيرت ... فزت بكل شيء

الزهرة تنمو

كل أشواكها لي أنا وحدي

وكل أوراقها الجميلة لك أنت

وفي عام ١٧٤٩م شاء القدر أن تموت المركيزة أثناء الولادة، فجمعت جنازتها زوجها وعاشقيها في صمت ودون كلمة واحدة من التبكيت أو الشجار. وقد حولت تلك الخسارة المشتركة العاشقين إلى أصدقاء !![٣]

حاول فولتير نسيان حبيبته بالانغماس في العمل، فبدأ بالكتابة عن "لويس الرابع عشر". إلا أنه جاءته دعوة من الملك فردريك للحضور إلى بلاطه في بوتسدام وأرسل مع الدعوة مبلغ ٣٠٠٠ فرنك لنفقات السفر. وهي دعوة لا يمكن لفولتير مقاومتها، فسافر إلى برلين في عام ١٧٥٠م. وسعد فولتير بالمعاملة الممتازة، فقد خصص له جناح في القصر مثل جناح فردريك نفسه، فأصبح متساويًا مع أعظم ملوك العالم في ذلك الوقت. وقد فاضت رسائله في تلك الفترة بالتعبير عن الرضا والسعادة. حيث قال: "هنا ١٥٠ ألف جندي وفخامة وحياة فاخرة ونعم وفنون وأوبرا وروايات هزلية وشعر. لقد تخيلت بأنني سأعيش يومًا في جنة صغيرة .. وأنا الآن فيها."

---

(١) - لي تعليق على رواية محمد سيرد في التعقيب الموجود في نهاية هذا الكتاب. (المترجم)

(٢) - كلام غريب عن عشيق يثور عندما ترتبط عشيقته برجل آخر، ثم يوافق على ذلك العشق ويمنحه البركة !!! أي بركة تلك ... فالمرأة متزوجة من رجل ثالث لا يمانع في تلك العلاقات المحرمة !! (المترجم)

(٣) - علامات التعجب أضفتها أنا ليستقيم النص العربي الذي يخاطب عربًا لهم تقاليدهم. (المترجم)

وكان فولتير يتجنب تناول الطعام في الحفلات الرسمية، فقد كان لا يستطيع تناول الطعام مع الجنرالات المتخمين، وكان يفضل تناول طعامه مع صفوة فردريك المختارة. وكان فردريك يريد أن يصبح شاعرًا وفيلسوفًا. وكان الحديث في تلك الحفلات باللغة الفرنسية، وحاول فولتير تعلم اللغة الألمانية إلا أنه توقف عن ذلك. وكتب بعد ذلك عن السعادة التي لقيها بعد أن تجاوز الخمسين من عمره.

إلا أن الحياة الهانئة لا تدوم. فقد كتب فولتير كتابًا شهّر فيه بأحد علماء الرياضيات الكبار، وظل يقرأ ما كتبه على الملك فردريك طوال الليل، وفردريك يضحك بشدة. وفي نهاية الجلسة طلب فردريك من فولتير ألا ينشر هذا الكتاب. لكن كان ذلك صعبًا جدًا فقد كان فولتير قد وافق على النشر واتفق مع ناشر. وعندما ظهر الكتاب غضب فردريك بشدة، وهرب فولتير ليتحاشى غضبه.

لكن رجال الملك قبضوا على فولتير في فرانكفورت على الرغم من أنها خارج سلطة الملك فردريك. وقد رفضوا إخلاء سبيله قبل أن يسلمهم أشعارًا كتبها الملك فردريك كانت معه، إلا أنه فقد الصندوق الذي كان يحوي تلك الأشعار. فاضطروا لاحتجازه إلى أن تم العثور على الصندوق. وهنا زادت مشكلات فولتير فقد جاء بائع كتب يطالبه بدين عليه أثناء تلك الواقعة، فلكمه فولتير لكمة قوية في أذنه، وطالب الرجل بحقه. إلا أن سكرتيره تدارك الأمر وقال للرجل: "يا سيدي .. لقد لكمك أعظم رجل في العالم." وقد تصرف السكرتير بحكمة مع الرجل وواساه ببعض الكلمات، فانتهت المشكلة وكان على فولتير أن يواصل السفر بأسرع ما يمكن. كان يظن أن خروجه من تلك الورطة سيريحه من كل المشكلات، ولم يكن يعلم أن هناك مشكلة أكبر في انتظاره.

فما أن تمكن فولتير من التخلص من مشكلاته والاقتراب من الحدود الفرنسية حتى واجهته مشكلة جديدة. جاءته رسالة تمنعه من دخول فرنسا واعتبار نفسه منفيًا. فاحتار فولتير العجوز، ولم يعرف إلى أين يذهب. وبعد بحث وحيرة، اشترى ضيعة في ضواحي جنيف ليعيش فيها. وعاش هناك وبدأت مرحلة الشيخوخة والإبداع.

• ٥- مقال الأخلاق:

ما الذي دفع الفرنسيين إلى اعتبار فولتير منفيًا؟ إنه كتاب نشره وهو في برلين. وقد تناول فولتير في كتابه هذا التاريخ الفرنسي، كما تناول تاريخ العالم. وقد غضب من هذا الكتاب رجال الدين على وجه الخصوص. أزعجتهم وجهة نظره في تناول المسيحية في أوروبا. حيث رأى أن غزو الديانة المسيحية لروما حولها حقًا من الوثنية إلى المسيحية إلا أنه أيضًا أدى إلى تفسخ الإمبراطورية الرومانية من الداخل. وفيما بعد أدى ذلك التفسخ إلى سقوط الدولة كفريسة سهلة في أيدي الغزاة.

كما زاد من غضب رجال الدين منه أنه لم يفرد مساحة كبيرة من كتابه للحديث عن أرض الميعاد وبلاد المسيحية. كما لم يتحدث عن الصين وفارس ولا دياناتها بإنصاف. وقد كشف ذلك الكتاب عن عالم جديد واسع، وأدى إلى المساس بالعقائد المسيحية. وهكذا أصدر الملك قرارًا بمنع ذلك المواطن الذي اعتبر نفسه إنسانًا أولاً قبل أن يكون فرنسيًا، وقرر ألا تطأ قدماه أرض فرنسا مرة أخرى.

• ٦- فيرني:

كانت "فيرني" هي الضيعة التي اشتراها فولتير ليسكن فيها عندما مُنع من دخول فرنسا. وكان بيته داخل الحدود السويسرية بالطبع. لكنه قريب من الحدود الفرنسية. رأى فولتير أنه مكان مناسب يمكنه من التسلل إلى فرنسا لو حاولت الحكومة السويسرية التضييق عليه. فقد أدى تجوله في عدة بلدان إلى تخوفه الدائم من المطاردة وتوترت أعصابه.

أصبح فولتير في الرابعة والستين، وهو يعيش في بيت يملكه لأول مرة في حياته. كان يعيش بلا زوجة وكانت ابنة أخيه تعيش معه في بيته. ولم يسمع أحد منه في تلك الفترة عن رغبته في العودة إلى باريس أبدًا.

وقد قضى فولتير وقته في زراعة الأشجار في حديقته، فزرع أربعة آلاف شجرة. وكان يزرع أشجار الفاكهة ولا يتوقع أن يرى ثمارها في المستقبل. كما أصبحت فرني عاصمة للعالم الثقافي. حيث زاره فيها كثير من كبار مثقفي العالم. وقد أُرهق فولتير

بسبب تدفق الزوار على ضيعته وتكبده الكثير من النفقات. وقد علق على ذلك بقوله إنه أصبح مديرًا لفندق "أوروبا".

وبالإضافة إلى الضيافة كان فولتير يتلقى سيلاً من الرسائل. فهناك تلقى رسائل من ملوك وأباطرة ومثقفين وغيرهم من جميع أنحاء أوروبا. حتى الملك فريدريك عاد لمراسلته بعد أن صمت عامًا كاملاً. فقال له:

"ارتكبت معي يا فولتير أخطاء عظمى، وقد عفوت عنها جميعًا. وأريد أن أنساها. ولولا جنوني بعبقريتك ما تمكنت أنت من الهروب والنجاة بنفسك. هل تحب أن تسمع أخبارًا طيبة، سأخبرك. أنا أرى أنك أعظم عبقري، وأحب شعرك ونثرك."

وكان فولتير ممزقًا مما لقيه في برلين وما حدث في فرانكفورت، وكانت همته قد فترت. إلا أنه تأثر بشدة في عام ١٧٥٥م وكتب قصيدة طويلة حين مات ٣٠ ألف إنسان في زلزال وقع في لشبونة وكان الناس محتشدين في الكنائس للاحتفال بيوم القديسين. حيث ثار بشدة عندما علم أن رجال الدين المسيحي رأوا أن ما حدث لأهل لشبونة هو عقاب على خطاياهم وذنوبهم. فكتب فولتير قصيدة طويلة تعليقًا على هذا الموضوع، قال في بدايتها:

أنا جزء صغير من العالم الكبير
نعم، جميع الحيوانات تعيش حياتها
وولدت جميع الكائنات بقانون واحد
إنها تتألم مثلي .. وتموت
يمسك الصقر بفريسته الفزعة
ويطعن بمخالبه جسدها المرتعش
وتبدو الأمور على ما يرام في عينيه لفترة
ثم يمزق النسر الصقر شر ممزق
ويضرب الإنسان النسر بنبلته ويقتله
وينجر الإنسان إلى معارك وحروب
ويختلط دمه بدماء القتلى رفاقه

ويصبح طعامًا للطيور الكاسرة

وبعد أشهر قليلة اندلعت حرب السنوات السبع، واعتبرها فولتير دمارًا لأوروبا أيًا كان المنتصر سواء انتصرت فرنسا أو بريطانيا وظفرت بعدة فدادين من أراضي كندا. وقد رد جان جاك روسو[1] على قصيدة فولتير عن لشبونة. حيث ألقى باللوم على الناس، لأنهم أقبلوا على العيش في المدن وترك الريف، فارتفعت الخسائر في الأرواح. وقد تعجب فولتير من الشعبية الشديدة التي حققها مقاله في الرد على القصيدة. فاستخدم فولتير سلاح السخرية البتار الذي لا يجاريه فيه أحد وكتب كتابًا جديدًا في ثلاثة أيام فقط وهو بعنوان "كنديد".

وكتاب كنديد قصة يناقش فيها فولتير موضوع التشاؤم بسخرية وسلاسة. وكانت القصة تتحدث عن شاب وهو (كنديد) بطل القصة.

كان كنديد شابًا بسيطًا وأمينًا، وكان ابن بارون عظيم وتلميذًا لعالم يدعى "بانجلوس". وكان بانجلوس أستاذًا في علوم الميتافيزيقا واللاهوت والكونيات. وهو يرى أن كل شيء مهيّأ لما خلق له. وأن الأنف مناسب لوضع النظارة فوقه، كما أن الأقدام مناسبة لارتداء الجوارب، والحجارة مناسبة لبناء القصور، إلى غير ذلك من صور مماثلة.

وبينما كان الاستاذ "بانجلوس" يتحدث لطالبه، هاجم جنود الجيش المجري على القصر وأسروا "كنديد" وجعلوه جنديًا. وتعلم "كنديد" كيف يدور إلى اليمين وإلى اليسار. كما تعلم استخدام البندقية في إطلاق النار وكيفية العناية بها. وفي يوم من أيام الربيع، ظن أن بإمكانه أن يتجول قليلاً. وما أن ابتعد عن المعسكر حتى لاحقه ٤ جنود. أوثق الجنود "كنديد" واصطحبوه إلى السجن. وقالوا له أن عقوبته أن يجلده كل جندي ٣٦ جلدة أو يموت فورًا برصاصتين في رأسه. حاول "كنديد" أن يقنع من حوله بحرية الإرادة، وأنه لا يريد الاختيار بين هذين الأمرين. إلا أنهم أجبروه على الاختيار فاختار الجلد. وتحمل الجلد ٣٦ جلدة مرتين.

---

(١) - جان جاك روسو (١٧١٢-١٧٧٨م) : هو كاتب وفيلسوف سويسري معروف ولد في جنيف. ويعد روسو من أهم كُتاب عصر العقل، وهي فترة من التاريخ الأوروبي، امتدت من أواخر القرن السابع عشر إلى أواخر القرن الثامن عشر الميلاديين. وقد ساهمت فلسفة روسو في تشكيل الأحداث السياسية، التي أدت إلى قيام الثورة الفرنسية. حيث أثرت أعماله في التعليم والأدب والسياسة. (المترجم)

هرب "كنديد" وسافر سرًا إلى لشبونة، وفي السفينة تقابل مع معلمه "بانجلوس" الذي أبلغه بموت البارون والبارونة وتدمير القصر. إلا أنه قال إن مصائب بعض الناس لابد أن تكون خيرًا لجميع الناس وكلما زادت المصائب اتضحت المنافع التي تعود بها على عامة الناس.

وصل الهاربان إلى لشبونة في الوقت الذي حدث فيه الزلزال. وبعد الزلزال بدأوا يتحدثون عما أصابهم من مصائب، إلا أن إحدى الخادمات قالت لهما إن ما حدث لهما لا يمثل أي شيء مما ألم بها من مصائب.

ثم هرب كنديد من محاكم التفتيش إلى باراجوي. ووجدوا أن القسس اليسوعيين يملكون كل شيء والشعب لا يملك أي شيء. ثم يصل "كنديد" إلى مستعمرة وهناك قابل زنجيًّا بذراع واحدة وساق واحدة. قال له الزنجي إنه فقد ذراعه كنوع من الجزاء على خطأ وقع فيه وهو يعمل على معصرة لقصب السكر وفقد ساقه جزاء لمحاولته الهرب. وقال له: "هذا هو الثمن الذي يمكنكم من أكل السكر في أوروبا."

وجد كنديد كميات كبيرة من الذهب الذي لم يكتشفه أحد من قبله، فاستأجر سفينة ليعود بها إلى فرنسا إلا أن قبطان السفينة هرب بالذهب وتركه في الميناء. فاشترى "كنديد" بالقليل من الذهب الذي تبقى معه تذكرة على سفينة متجهة إلى "باردو". وعلى السفينة بدأ حديثه مع عالم مسن اسمه "مارتين".

سأل "كنديد" رفيقه "مارتين" عن رأيه في الناس، وهل هم صادقون أم كذابون ومخادعون وخونة وجاحدون وحمقى ولصوص وفاسقون وماجنون وسافكو دماء ومتعصبون.

رد مارتين: ألا تعتقد أن الصقور تنقض على الحمائم على أي حال؟

قال كنديد: نعم.

قال مارتين: إن كانت الصقور لا تغير طباعها، فلماذا تتوقع من الناس أن يغيروا طباعهم؟

وهنا وصلوا إلى باردو فتوقف النقاش. كما أننا لا نستطيع تتبع "كنديد" في باقي مغامراته لأنها تعددت إلى أن استقر به الأمر إلى الإقامة في تركيا وعمل بالزراعة.

وانتهت قصة "كنديد" بحوار بين الطالب "كنديد" ومعلمه "بانجلوس".

يقول بانجلوس: "هناك ارتباط بين ما يقع في العالم من حوادث .. فلو لم تطرد من القصر العظيم .. ولو لم تطاردك محاكم التفتيش ... ولو لم تسافر إلى أمريكا ... ولو لم تفقد كل الذهب الذي وجدته ... لما جئت إلى هنا لتأكل هذا اللارنج الطيب وهذا الفستق الحلبي."

رد "كنديد": كل هذا حسن .. دعنا نزرع الحديقة."

• ٧- الموسوعة والقاموس الفلسفي:

أعطتنا الشعبية التي لقيها كتاب "كنديد" فكرة جيدة عن روح ذلك العصر وعن الحضارة العظيمة في عهد لويس الرابع عشر. حيث تعلم الناس أن يبتسموا أمام المعتقدات والتقاليد القديمة. كما أدى فشل الإصلاح الديني إلى الوصول إلى طريق مسدود في فرنسا، لكن الحال كان غير ذلك تمامًا في إنجلترا وألمانيا. فكان من الطبيعي أن ينقلب أشخاص مثل لامتر وهلفيتوس وهولباخ وديدور على ديانة آبائهم ويلحدوا.

كان لامتر طبيبًا في الجيش، إلا أنه فقد وظيفته، ونفي خارج فرنسا بسبب كتاب ألفه بعنوان "تاريخ النفس الطبيعي" ورسالة بعنوان "الإنسان آلة". وبالطبع لجأ إلى بلاط فردريك الثاني المهتم بما كان يجري في فرنسا.

أما أكبر شخصية في تلك المجموعة فقد كان دينيس ديدرو وكانت له كتابات متنوعة هو أيضًا، كما كانت هناك كتابات لباقي تلك المجموعة مثل هولباخ وغيره. وقد تركزت أفكارهم على الإلحاد. فقد رأوا أن جهل الناس وخوفهم أدى بهم إلى تصور وجود آلهة وأن الوهم والخيال والحماسة شجعت على استمرار تلك الأفكار وتزيينها في عقول الناس. كما أن حكم الطغاة يشجع على استمرار تلك الأفكار فاستمرار الإيمان بوحدانية الله مرتبط بحكم الفرد أو الحكم المطلق. وقد رأى لامتر أن أخلاق الإلحاد تقوم على الأنانية وحب النفس. كما أن الفضيلة تعني الأنانية الملتزمة بصوت الضمير الذي يعني الخوف من الشرطة وليس الخوف من الله. وقد بثت تلك الجماعة من الملحدين آراءها في كتاب أطلقوا عليه اسم الموسوعة وصدرت في عدة أجزاء.

وكان من الطبيعي أن تجد تلك المجموعة ضالتها في فولتير لتعتبره زعيمًا لها. فهو مهتم بكل شيء ويريد أن يكون له مكان في أي معركة. لم يرفض فولتير أفكارهم على الرغم من إنه يعلم أنها بحاجة إلى تصحيح. ولم يرفض ما أحاطوه به من تكريم باعتباره زعيمًا لهم. كما طلبوا منه كتابة مقالات لموسوعتهم التي ذكرناها فاستجاب بسرعة.

وعندما فرغ فولتير من كتابة مقالات لموسوعة الملحدين، أصدر قاموسًا فلسفيًا خاصًا به. وفي ذلك القاموس تناول الموضوعات الفلسفية بجرأة شديدة ورتب الموضوعات ترتيبًا أبجديًا. ولنا أن نتصور أن رجلاً واحدًا ينتج قاموسًا يتحدث عن كل الموضوعات الفلسفية ويعتبر من أهم كتبه وأكثرها رواجًا بجانب ما ألف من روايات. وقد جاءت موضوعات هذا الكتاب مثالاً للاختصار والإيجاز والوضوح والعرض الذكي. وكانت تلك هي طريقته في كل كتبه، فأثبت أنه حقًا فيلسوف. وقد بدأ كلامه فيما ورد في الكتاب من قصص بالشك مثله في ذلك مثل ديكارت وكثير من الفلاسفة.

• ٨- استحقوا العار:

في سنواته الأخيرة اضطر فولتير إلى الخروج من الشك والانشغال بما يحيط به من مشكلات. فقد كانت "فيرني" لا تبتعد كثيرًا عن سابع أهم مدينة فرنسية، وهي مدينة "طولوز".

في طولوز كان رجال الدين الكاثوليك يتمتعون بسلطة مطلقة أيام فولتير، وكان لا يسمح لأي بروتستانتي أن يعمل محاميًا أو صيدليًا أو بقالاً أو بائع كتب أو صاحب مطبعة. وكان هناك قانون يمنع الكاثوليك من استخدام أي خادم أو كاتب أو عامل بروتستانتي. وفي عام ١٧٤٨م دفعت امرأة غرامة قدرها ٣٠٠٠ فرنك فرنسي لأنها استعانت بقابلة بروتستانتية.

وكان هناك رجل من طولوز بروتستانتي يسمى جان كالاس. وكانت ابنته قد تحولت إلى المذهب الكاثوليكي، كما انتحر ابن له لعدم الحصول على فرصة عمل (في الأغلب: بسبب الحصار المفروض على استخدام البروتستانت). أراد الرجل تجنيب جثة ابنه ذلك التمثيل البشع الذي يتم في جثث المنتحرين من حيث الطواف بالجثة عارية وهي معلقة على شبكة من الأعواد الحديدية ثم

تعليقها على المشنقة. استعان الأب ببعض الأقارب والأصدقاء للشهادة بأن ابنه توفى وفاة طبيعية. فانتشرت شائعة بأن الأب عذب ابنه حتى الموت لأنه تحول إلى المذهب الكاثوليكي، فألقي القبض على الأب الذي سرعان ما مات من التعذيب في عام ١٧٦١م. وفر باقي أفراد الأسرة المطاردة إلى بيت فولتير الذي تعجب من قصة مطاردتهم وتعقبهم.

ثم جاءت أخبار بمقتل فتاة، حيث تم دفعها للسقوط في بئر لنفس الأسباب السابقة تقريبًا. كما قُتل شاب صغير كان لا يزال في السادسة عشر من عمره بتهمة تشويه الصليب وعليه صورة السيد المسيح. قُطعت رأسه وألقي جسده في النار أمام الجموع التي تصفق في سعادة. كما أُحرقت معه نسخة من كتاب "القاموس الفلسفي" لفولتير وكان بحوزته.

هنا تحول فولتير من السخرية والهزل إلى الجد، فقد علق دلامبرت على تلك الحوادث بقوله إنه سيسخر من كل شيء. إلا أن فولتير قال له إن السخرية لا تواجه المجازر والقتل. يقول فولتير: "بلادنا لم تعد بلاد الفلسفة بل بلاد المجازر والقتل." وهنا نحى فولتير الفلسفة جانبًا وتفرغ للحرب، فتحولت الفلسفة إلى قوة دافعة وشديدة العنف، واختفت من حياته الابتسامة. يقول: "كنت ألوم نفسي على أي ابتسامة تفلت مني في تلك الفترة الحزينة." وقد رفع شعارًا وهو "استحقوا العار" وجعله مبدأ له في مواجهة مظالم الكنيسة. وراسل كل أصدقائه وأتباعه يدعوهم إلى المعركة ضد الخطب المضللة والتاريخ الكاذب.

وهنا تحركت الكنيسة وحاولت رشوته بمنصب كاردينال من أجل الصلح معه والسكوت. ظنوا أن منصب "كاردينال أخرس لا يعترض على شيء" سيغري من ساد عالم الفكر لسنوات طوال في العالم أجمع. رفض فولتير العرض وتوقف عن إرسال رسالة "استحقوا العار" وبدأ في إرسال رسائل تتحدث عن التسامح الديني. ثم توقف عن تلك الرسائل وبدأ في كتابة رسائل تتحدث عن التاريخ والخطب والمواعظ والشعر والحكايات والقصص والتعليقات وكانت تلك الرسائل تحمل اسم فولتير أو مئات الأسماء الأخرى المستعارة.

استمر فولتير في إرسال رسائله المؤثرة يومًا بعد يوم وأسبوعًا تلو الآخر وشهرًا بعد شهر دون كلل أو توقف. فأدهش الجميع بغزارة أفكاره وخصوبة رؤيته وحيويته رغم أعوامه السبعين.

وقد تحدث فولتير في تلك الرسائل عن أن شعوب العالم كانت تؤمن بالخرافات والأساطير التي وضعها الكهنة ورجال الدين، وقال إن الكاهن: "هو أول محتال يقابل أول أحمق". كما أنه -على أي حال- لم ينسب الدين إلى القساوسة بل نسب إليهم اللاهوت. يقول: "الخلافات البسيطة في اللاهوت هي التي تسببت في نزاعات مريرة وحروب دينية. وما تسبب في ذلك سوى الكهنة الذين يعيشون من قوت الشعب البسيط الكادح، فيكونون ثرواتهم على حساب بؤس الشعب وشقائه. ثم يتنافسون على شراء ذمم الناس وشراء العبيد ويوجهون عامة الشعب إلى التعصب المذموم. وحتى يتمكنوا من سيادتكم والسيطرة عليكم نشروا بينكم الأساطير والخرافات، وليس ذلك لتخافوا الله بل لتخافوهم هم."

لكننا لا يجب أن نفترض أن فولتير كان بلا دين. فقد رفض الإلحاد تمامًا. حتى أن بعض أفراد مجموعة الملحدين الذين كتبوا الموسوعة وتحدثنا عنهم من قبل هاجموه بشدة عندما قال إنه قرأ أفكار سبينوزا وابتعد عنها لأنها أفكار ملحدة.

ويرى فولتير أن الحظ يحدد كل شيء في حياتنا، وأنه ليس لنا أن نصلي لله ثم نطلب ما ينافي قوانين الطبيعة، بل علينا أن نقبل بما يحدث طبيعيًا لأنها قوانين الله التي تحكم كل شيء.

كما ينكر فولتير أيضًا الإرادة الحرة للإنسان. أما بالنسبة للنفس فهو يرى أن قراءة أربعة آلاف كتاب في الميتافيزيقا لن تعلمنا ما هي النفس، وقد كان يؤمن بالحياة الآخرة في شيخوخته بالرغم من أنه رآها مسألة صعبة.

وفي أيامه الأخيرة تغيرت معتقداته قليلاً، فأصبح يعتقد أن الإيمان بالله ليس له قيمة أخلاقية ما لم يقترن ذلك الإيمان بالإيمان بالخلود والثواب والعقاب. كما رأى أن البلدة الصالحة لابد لها من دين، فالمرء يريد من زوجته وأسرته ومن يحتك بهم مثل الخياط والمحامي والطبيب وغيرهم أن يكونوا مؤمنين بالله حتى لا يغشوه أو يسرقوه.

ويرى فولتير أن: "المؤمن هو من يؤمن بوجود الله خالق كل شيء. وأن الله سيعاقب الناس على ذنوبهم ويكافئهم على أعمالهم الصالحة. وليس هناك ضرورة ملحة لأن ينتمي الإنسان إلى مذهب من المذاهب إن كان يؤمن بالله. فدين الله هو أقدم الأديان وأكثرها انتشارًا وهو يقوم على عبادة بسيطة يفهمها الجميع. والدين يفهم لغات الجميع ويتعامل معهم بها، بينما لا يفهم الناس بعضهم بنفس تلك السهولة. والدين صديق للحكماء ولا يوجد به آراء كتلك التي ترد في الميتافيزيقا، ولا يوجد به مظاهر تافهة بل يقوم على العبادة والعدل فقط. وعمل الخير هو عبادة الله وتسليم الأمر له هو وشريعته. فالله يغيث الملهوف ويلبي حاجة المحتاج وينصف المظلوم."

• ٩- فولتير وروسو:

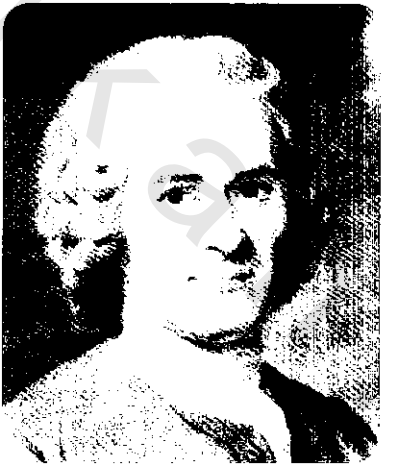

جان جاك روسو

في سنوات حياته الأخيرة اضطر فولتير إلى الانسحاب من معركة الفساد السياسي والتركيز على محاربة طغيان الكهنة ورجال الكنيسة. فقال: "إن السياسة ليست عملي، فقد وهبت نفسي لرفعة الناس وتجريدهم من السخافات. فالمشرعون يحكمون العالم ويعجزون عن السيطرة على زوجاتهم وأسرهم. يتلذذون بتنظيم الكون وبيوتهم خربة. لكن ليس من الممكن حل كل مشكلات الناس بصيغة واحدة وعامة، ولا يتحقق ذلك أيضًا عن طريق تقسيم الناس إلى حمقى وخدم من ناحية، وسادة وحكام من ناحية أخرى. فالحقيقة ليست كلمة مطلقة."

وقد رأى فولتير ألا يفضل أي نوع من أنواع الحكومات، إلا أنه كان يميل من الناحية النظرية إلى النظام الجمهوري. وهو يعرف أن من بين عيوب هذا النظام أنه يسمح بوجود الانقسامات التي قد تؤدي إلى حرب أهلية أو تدمر وحدة الشعب على أقل تقدير. ويرى أن هذا النظام مناسب للدول الصغيرة واضحة الحدود الجغرافية التي لم تفسدها الثروات بعد. كما أنه يعتقد أن الشعب لا يملك مواهب حكم نفسه وأن النظام الجمهوري سريع الزوال.

فقد عاش الهنود الحمر في قبائل، وهو نظام لا يزال موجودًا في أفريقيا إلى يومنا هذا. لكن التمييز الواضح بين القبائل وبعضها سينهي وجود تلك الجمهوريات العنصرية. وهو يرى أن التساؤل حول أفضل نظام الحكم الجمهوري أم الملكي؟ تساؤل قائم منذ ٤٠٠٠ عام.

فإذا سألت الأغنياء هذا السؤال تجدهم يفضلون الحكم الأرستقراطي. وإن وجهت نفس السؤال إلى عامة الناس تجدهم يفضلون الحكم الديموقراطي. والملوك وحدهم هم من يفضل الحكم الملكي.

كما أن فولتير لا يهتم بالقومية ولا بالشعور بالوطنية بمعناها الواضح. وهو يعتقد أن الوطنية قد تعني أن يكره الإنسان بلاد العالم إلا بلده. فإن أحب الإنسان لبلده الخير والرفاهية، حتى ولو على حساب دول أخرى، فهو وطني وصالح. كما أثنى فولتير على الأدب الإنجليزي وامتدح ملك بروسيا "فردريك الثاني" في وقت كانت فرنسا تحارب فيه هاتين الدولتين.

وكان فولتير لا يكره شيئًا مثل كراهيته للحرب، فهو يعتبر الحروب أم الجرائم وأعظم الشرور. ويرى أنه في الحرب، كل الدول تحاول إلباس جرائمها ثياب العدل. حيث يُقتل الكثير من الناس في الحرب، ويصل أعداد القتلى إلى الألوف دون تأثر يذكر.

كما تحدث فولتير في قاموسه عن الإنسان، فيقول:

"يحتاج الإنسان إلى ٢٠ عامًا حتى يبلغ أشده، إلا أنه يحتاج إلى ٣٠٠٠ عام حتى يتمكن من اكتشاف نفسه ومعرفة تكوينه. بينما تكفي دقيقة واحدة لقتله."

كما أن فولتير لا يرى أن الثورة يمكن أن تحل مشكلات الدول. وهو لا يثق في حكم الشعب لنفسه، يقول: "عندما يتولى الشعب حكم نفسه يضيع كل شيء." فأغلب

الناس مشغول في أعماله وشئون حياته اليومية ولا يجد أي وقت للتفكير في الحقيقة وفي أمور الدولة. كما أن تاريخ الشعوب ما هو إلا إحلال لخرافة محل أخرى. والسياسة تستفيد من تلك الأخطاء التي تحل محل بعضها البعض.

كما يرى فولتير أن عدم المساواة بين الناس أمر لا مفر منه. بل هو أحد الأسس التي يقوم عليها المجتمع. ويرى أن من ينادون بالمساواة بين الناس على حق إن كانت المساواة التي يقصدونها في الحرية والتملك والخضوع للقانون، فهذه أمور طبيعية. لكن هناك مساواة أخرى تعتبر من الخيال، مثل أن نحاول المساواة بين الناس في الحكم والتملك والحصول على الأمتعة، وذلك لأن الناس جميعًا ليسوا على نفس القدر من القوة.

ويضرب فولتير هنا مثلاً بجان جاك روسو الذي تخلى عن مبدأ الحرية عندما وقعت الثورة الفرنسية في أيدي أتباعه.

كما شكك فولتير بقدرة المشرعين على إقامة بناء جديد للعالم من وحي الخيال. فالمجتمع بالنسبة له مسألة تطور ووقت. وإن ألقى المجتمع بتقاليده وماضيه من الباب، فإنها تعود إليه من النافذة.

وكان فولتير يتوقع حدوث الثورة، يقول: "كل ما أراه ينبئ بحدوث ثورة، ولا مفر من وقوعها في يوم من الأيام. حيث يتحرك الفرنسيون متأخرين دائمًا إلا أنهم يتحركون. سيحدث انفجار عظيم في البداية ثم يعقبه ثورة ضخمة، وسيسعد الشباب بذلك لأنهم سيرون نتيجة أعمالهم." إلا أن فولتير لم يتوقع ما سيحدث له هو، فقد تساوى معه جان جاك روسو الذي اجتاحت أعماله وقصصه فرنسا ووصلت شهرته إلى جنيف.

وهنا يتمثل الصراع القديم بين العقل والغريزة في هذين الرجلين: فولتير وروسو. كان فولتير يؤمن بالعقل دائمًا، بينما كان روسو لا يؤمن بالعقل إلا قليلاً، وهو يحب العمل ولا يخشى حدوث ثورة في الدولة. وعلى الرغم من ذلك الصراع، فقد انتقد فولتير الحكومة السويسرية لأنها صادرت كتاب روسو وأحرقته. وذلك لأنه تمسك بما يقوله دائمًا، وهو: "أنا أختلف معك في كل ما قلته، لكني أدافع عن حقك في التحدث وحرية التعبير عن أفكارك إلى أبعد مدى." وعندما هرب روسو من مئات الأعداء المتربصين به، أرسل له فولتير دعوة كريمة لاستضافته.

وكان فولتير يرى أن دعوة روسو لنبذ الحضارة والمدنية والعلوم ما هي إلا هذيان سخيف. لأن حياة الإنسان المدنية أفضل بكثير من حياته المتوحشة التي عاشها فيما قبل التاريخ. وهو ينبه روسو إلى أن الإنسان كائن متوحش بطبيعته، وأن المجتمع المدني ضروري لتكبيل وحشية هذا الكائن.

وفي نهاية الحديث عن المجتمع المدني، نعود إلى الحلقة القديمة الحديثة. فالناس يضعون النظم، والنظم تشكل الناس. فكيف يمكن تطوير هذا التسلسل؟ يعتقد فولتير أن هذا التطوير يمكن أن يأتي عن طريق التعليم والتثقيف وتدريجيًا بالوسائل السلمية. وفي المقابل نجد أن روسو يرى أن هذه السلسلة لا يمكن تهذيبها إلا بالقضاء على القديم وإحلال الجديد محله.

• ١٠- ختـــام:

استمر الفيلسوف الضاحك في زراعة الحديقة المحيطة ببيته، وكان يرى أن ذلك هو أفضل ما يقوم به من أعمال. وقد مد الله في عمره ليستمر في الزراعة وعمل الخير وتقديمه للمحتاجين خاصة أولئك الذين يسجنون من أجل سوء السلوك، فيعمل على الحصول على عفو لهم وتأهيلهم للعمل في أعمال شريفة. وكان يستمر في مراقبتهم وإرشادهم ونصحهم. وكان كريمًا ومضيافًا، فأتاه الناس من كل صوب. وقد عفا عن شابين صغيرين في السن سرقا أمواله وركعا أمامه طلبًا للعفو. فأخذ بأيديهما وأوقفهما وقال لهما إن الركوع لله وحده. ولا يجب أن تركعا أمام بشر مثلكما.

وفي عام ١٧٧٠م، جمعت التبرعات لإقامة تمثال نصفي له، ومنع فولتير الأغنياء من التبرع بأكثر من قرش واحد حتى تتاح الفرصة لآلاف الناس في المشاركة.

عندما بلغ من العمر ٨٣ عامًا، اشتاق لرؤية باريس مرة أخرى. وقد نصحه الأطباء بألا يغامر بالسفر لأن الرحلة شاقة. إلا أنه بدأ رحلة السفر إلى باريس، فقطعها ميلاً تلو الآخر. وعندما وصل بعربته إلى باريس، اتجه إلى بيت صديق له فورًا. وفي اليوم التالي جاءه حوالي ٣٠٠ شخص ليرحبوا به. وكان من بينهم الفيلسوف والسياسي الأمريكي "بنيامين فرانكلين" وكان معه حفيده طلبًا للبركة من فولتير. وضع فولتير يده على رأس الطفل وقال له: "هب حياتك لله وللحرية."

وما أن اقترب فولتير من الموت حتى أُحضر قسيس ليعترف أمامه بخطاياه كما هو متبع قبل الموت. فسأل فولتير القسيس: "من أرسلك؟" قال: "الله." فسأله فولتير عن أوراق اعتماده. ولم يظفر القسيس بما أراد. وبعد ذلك أرسل فولتير يطلب قسيسًا آخر، لكن القسيس رفض الغفران لفولتير ما لم يوقع على اعتراف بأنه كاثوليكي. وأن إيمانه بالكاثوليكية راسخ لا تشوبه شائبة. ثار فولتير لهذا الطلب وكتب: "أموت على عبادة الله ومحبة أصدقائي وكراهية أعدائي وكراهية الخرافات والأساطير الدخيلة على الدين." ووقع على الورقة في الثامن والعشرين من فبراير ١٧٧٨م.

وعلى الرغم من المرض الشديد، سار فولتير إلى الأكاديمية الفرنسية بعربته وسط الجماهير المحتشدة التي مزقت عباءة أهديت إليه من ملكة روسيا، فكل منهم كان يقطع قطعة صغيرة يحتفظ بها للذكرى. وكان ذلك الاستقبال الجماهيري أعظم أحداث ذلك القرن. ووقف فولتير وألقى خطابًا في الأكاديمية واقترح تنقيح القاموس الفرنسي. وكان مفعمًا بحيوية الشباب. كما حضر أحد العروض المسرحية لرواية من تأليفه وذلك رغم نصح الأطباء له بعدم الذهاب. وكانت رواية ضعيفة إلا أن الناس لم يهتموا بذلك قدر اهتمامهم بقدرة فولتير على كتابة رواية وهو في الثالثة والثمانين من عمره.

في المساء، عاد فولتير إلى بيته وهو يقترب من الموت، شعر بتعب وإعياء شديدين. وقد قاوم وكان شديد التمسك بالحياة ومحب للنشاط والتحرك. إلا أنه مات يوم ٣٠ مايو ١٧٧٨م.

رفضت السلطات الفرنسية دفنه في مدفن المسيحيين في باريس. فوضعه أصدقاؤه في عربة كما لو كان حيًا وخرجوا به من باريس ودفنوه في مكان وجدوا فيه قسيسًا يعلم أن تلك الأحكام لا يجب أن تقف عائقًا أمام العباقرة.

وفي عام ١٧٩١م، نُقلت رفات فولتير إلى مدفن عظماء الأمة. وقام طابور مكون من ١٠٠ ألف من الرجال والنساء بحراسة رفاته وهي تمر من باريس. وذلك بعد أن أجبرت الثورة لويس الرابع عشر على الموافقة على ذلك. وقد اصطف ما يقرب من المليون شخص على أرصفة الشوارع.

كتب على العربة التي نقلت رفاته: "أعطى فولتير للعقل قوة دافعة، وأعادنا للحرية." وكتب على قبره ثلاث كلمات فقط: هنا يرقد فولتير.